البعد الإنساني المفقود في الحياة المعاصرة

تفاعل طافات الروح والجسد والتقاء الآخرة بالدنيا

الدكتور مُحَمَّد فتحي عثمان

نشر في كتاب

الدور الحضاري للأمة المسلمة في عالم الغد

(سلسلة مشروعات ثقافية)

مركز البحوث والدراسات

وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، الدوحة، الطبعة الأولى

1421 هـ /2000م

أعيد نشره إلكترونيا في رمضان
1439 / مايه 2018

البعد الإنساني المفقود في الحياة المعاصرة

تفاعل طاقات الروح والجسد.. والتقاء الآخرة بالدنيا

﴿ثُمَّ سَوَّىٰهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۚ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ (السجدة:9)

الدكتور مُحَمَّد فتحي عثمان (*)

إن الحضارة المعاصرة قد بدا خللها أول ما بدا في كيان الأسرة، فاضطربت علاقات الزوجين وعلاقات الأبناء.. وباضطراب كيان الأسرة، فزع كثير من الشباب إلى تكوين عصابات يثأرون من خلالها لما فاتهم من المودة والرحمة.

أعيش في الولايات المتحدة منذ اثني عشر عامًا، ومن قبلها عشت في بريطانيا قرابة سبع سنوات.. هكذا عشت في قلب الحضارة المعاصرة وفي أكثر أقطارها تقدمًا، وأشهد بكل صدق لكل ما رأيت واستمتعت به، من روائع التقدم العلمي والفني والتنظيمي.

ولكن أبناء بلدان هذه الحضارة المعاصرة وكل من عاش فيها أو زارها تتصاعد شكاواهم من فجوة تتفاقم في بنية حياتهم، ويستطيعون بسهولة أن يرصدوا ظواهرها، من فردية مسرفة أدت إلى شيوع الرشوة والفساد الإداري، على الرغم من تقدم التنظيم

(*) باحث.. أكاديمي.. (مصري، مقيم في أمريكا).

وتزايد القوانين، والدأب على محاولة الهرب من الحياة على الرغم من أفانين تيسيرها وتوفير الجهد الإنساني باستغلال الآلات العاملة بالكهرباء والمواد البترولية وغيرهما من فحم طال استخدامه زمنًا، أو طاقة ذرية اكتشفت حديثًا ويتزايد الإفادة منها في الأغراض السلمية مع الزمن، ناهيك بالأعراض القتالية.

وقد ضاعف من النجاح في توفير الجهد الإنساني اتساع نطاق استخدام الحاسوب الآلي و«البرمجة الكمبيوترية»، حتى عم الفزع من استهلاك القرن الحادي والعشرين وفق التقويم السائد في العالم، قبل أن يتمكن العلماء والتقنيون من إدخال رقم (2) في حساب السنوات في شبكات «الكمبيوتر» العالمية المنتشرة في شتى أنحاء الأرض مما عرف بمعضلة (Y 2K)!

وقد ترتب على هذه الأفانين في ترتيب الجهد الإنساني إتاحة قدر أكبر من الفراغ لدى شعوب البلدان المتقدمة، تنوعت أفانين اللهو لأجل تمضيته والاستمتاع به، وتنوعت أساليب الاقتراض والتداين لاقتناء الآلات والأجهزة الميسرة للحياة والموفرة للجهد الإنساني، وللاستمتاع بوقت الفراغ الناجم عن ذلك، فيما يتزايد بصورة مهولة من أفانين اللهو والمتعة والتسلية!

ومع كل هذا التقدم في الكشف والاختراع والإبداع، لا تزال مجتمعات البلدان المتقدمة في الحضارة المعاصرة تشكو من «الملل» و«الرتابة» و«السأم boredom»، مما يدفع بكثير من الشباب فيها إلى الهرب من تلك الحياة إلى «هلوسة» المخدرات، أو «تهيّج» العنف والجريمة، مما شملت غوائله الأطفال الصغار والعجائز الكهول، ذكورًا وإناثًا! وفشلت جهود علماء النفس وأطبائها Psychiatrists, Psychologists في معالجة هذه البلايا النفسية والاجتماعية، على الرغم من تقدمها في بعض الجوانب بغير جدال.. ولربما يندفع المرء إلى الانسحاب من الحياة تمامًا بالانتحار والحكم على نفسه

بالإعدام!

ومنذ قرابة نصف قرن، انعقدت ندوة بمعاونة اليونسكو في نيودلهي بالهند، امتدت من 13-20 من ديسمبر «كانون الأول» 1951م لمناقشة: «المثل الأعلى الإنساني وفلسفة التربية في الشرق والغرب»، وقد افتتح الندوة مولانا أبو الكلام أزاد وزير التربية في حكومة الهند وقتذاك، وكان مما جاء في كلمته: «المرآة التي صنعها الإنسان تعكس جميع مظاهر الكون من غير أن تعكس ذاته الخاصة... إن الإنسان قد أدرك من أسرار الكون أكثر مما أدرك من الأسرار التي تعنيه هو نفسه... ولن يتمكن الإنسان من إيجاد حل ملائم لمعضلاته الفردية والاجتماعية، والقومية والدولية، قبل أن يعرف حق المعرفة طبيعة كيانه الخاص، وقبل أن يحدد المكان الذي يشغله في العالم الأكبر... والقرآن يعلن أن الإنسان خليفة الله في الأرض، قال تعالى:﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً... ﴾(البقرة:30).. إن الفلاسفة العرب حتى في شرحهم لأرسطو، يبدو التأثير المسيطر عليهم في كتاباتهم هو فكرة خلافة الإنسان لله في الأرض، فابن سينا وابن رشد أرسطيان في الفلسفة الميتافيزيقية أحيانًا كثيرة، ولكن اتجاههما الروحي الإنساني يحثهما على الاعتراف بأن المعرفة والسلطان اللذان يستطيع الإنسان بلوغهما لا يمكن تحديدهما. وقد أفاض في ذلك علماء التوحيد المسلمون كالغزالي والفخر الرازي وغيرهما».

وأشار كلارنس هـ. فوست عميد كلية العلوم الإنسانية بجامعة استانفورد Stan ford المبرّزة بين جامعات الولايات المتحدة ورئيس شعبة التربية في مؤسسة فورد، إلى الاهتمام بـ «تسلسل الأحداث Process» في الدراسات الإنسانية والعلوم الاجتماعية، و«استعمال المعرفة المكتسبة بهذه الطريقة في بعض الظروف الخاصة **من أجل بلوغ غايات سريعة بوسائل محددة**... وفي هذا الاهتمام بتسلسل الحوادث

والطريقة التي تحدث فيها الأشياء أو التي يمكن إحداثها فيها، **يُوَجَّه عقل الباحث والمربي إلى الخاص والزمني لا إلى العام والأبدي، وإلى أن هدف البحث عامة وهدف التعليم خاصة هو إيضاح العلاقات السببية في سلسلة متصلة الحلقات، لا الوصول إلى مبادئ عامة خالدة.** ومثل هذه السلسلة، هي في نظر مدرسة كبرى ذات نفوذ واسع، هي المعرفة الحقيقية الوحيدة. ويعتبر هؤلاء أن السعي وراء مبادئ أزلية باطل عقيم، فهم ينكرون وجود مثل هذه المبادئ، وحتى إذا افترض وجودها **فهي بعيدة عن المعضلات الحسية المباشرة التي تستلزم حلاً سريعًا**، ومن ثم فإنها خالية من كل قيمة عملية، وصارفة للفكر عن مواجه المعضلات المباشرة»!

وذكر ج.ب. مالا لازيكيرا أستاذ الفلسفة بجامعة كولومبو في سيريلانكا عن وجهة النظر البوذية: «لكي يُسهم الدين عمليًا في سعادتنا، **يجب أن يكون له أثره في جميع مظاهر الحياة الاجتماعية والاقتصادية والسياسية** على حدٍّ سواء، ويجب ألا ينحصر في الكنيسة أوالمعبد، ويقتصر على نهار الأحد أو السبت. إنما عليه أن يغمر كياننا كله، شأن الهواء الذي نستنشقه! إنه **ليس ثمة قواعد أخلاقية فردية تتميز عن القواعد الأخلاقية الجماعية**.. ومن أوخم عواقب عصرنا الآلي ذلك الرجل المتوسط Average Person الساذج العاري من كل ثقافة ومثل أعلى، والمغلق بالنسبة لكل ما يتجاوز مصلحته الشخصية البحتة، الذي أسهمت أدوات التسلط الحديثة على الجماهير الشعبية من وسائل الإعلام الضخمة في تعميم نموذجه في عالم اليوم!... وسلوك الطريق القويم، يعني بصفة أساسية الإقلاع عن الانتهازية Opportunism ، ولا يحقق ذلك إلا بمقدار ما نعطي الموجب الأخلاقي أساسًا عميقًا في الإنسان، يتجاوز المصالح الشخصية العاجلة المتغيرة. **إن السنن الأخلاقية التي لا تنبثق من نظرة معينة للكون ومن مثل أعلا لحياة أكثر تكاملاً وكمالاً، لا يمكن أن تكون لها قاعدة راسخة وأساس متين»**.

ونقل الأديب الفرنسي أندريه روسو في حديثه خلال تلك الندوة عن الدكتورة

تيريز بروسي تلك الكلمات الهادية: «إن المعضلة التي تحدق بنا أكثر من غيرها في أيامنا، هي معضلة وضع علم للإنسان Anthropology لا يكون مقصورًا على علم الحيوان الإنساني، **بل يكون علم الإنسان بكافة جوانبه، شاملاً لكل ما ينطوي عليه من قيم روحية، مدروسة من وجهة النظر الفردية والاجتماعية في آن واحد.** فالإنسان في الواقع قد انتزع من المادة سر قواها الكونية (من نواح متعددة)، لكنه لم يحقق هو في نفسه مقابل ذلك جهد اكتشاف مماثل لكي يتواصل مع ضميره مع جميع إمكاناته في إشاعة التفاهم والحب».

[للراغب في التفصيل، هناك ترجمة عربية لندوة اليونسكو التي أعدها أنطون خوري نشرتها اللجنة الوطنية اللبنانية للتربية والعلم والثقافة مع دار النشر للجامعيين في بيروت، ولم يبين عليها تاريخ النشر].

وهكذا أشار العلماء والمفكرون الذي كانوا يمثلون مختلف البلدان والديانات والثقافات في تلك الندوة إلى الحقيقة التي روتها الأناجيل المتداولة عن المسيح عليه السلام: (ماذا ينتفع الإنسان لو ربح العالم كله وأهلك نفسه أو خسرها) (لوقا9:25)، (ليس بالخبز وحده يحيا الإنسان، بل بكل كلمة من الله) (لوقا4:4). وأبرزت تلك الحقيقة رسالة القرآن الخاتمة: ﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝٧ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ۝٨ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ﴾(الشمس:7-10)، ﴿ وَفِيٓ أَنفُسِكُمْۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾ (الذاريات:21)، وقال الله: ﴿ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ۝٦ يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْءَاخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ ﴾ـــــروم:6-7)، ﴿... فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ۝١٢٣ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا ... ﴾(طـه:123-124)، ﴿ فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ

إِلَّا ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿٢٩﴾ ذَٰلِكَ مَبْلَغُهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ ﴾ (النجم:29-30).

إن الطاقة الروحية خصيصة إنسانية جوهرية منذ خلق الله الإنسان، وهي ميزته الكبرى﴿ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴾الحجر:29)؛ (ص:72)، وهي إذ تشع في كيان الإنسان كله، تتفاعل مع طاقاته العقلية والنفسية والبدنية، فينتج عن هذا التفاعل المركب السلوكي الإنساني الرشيد المتميز: ﴿ ثُمَّ سَوَّىٰهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۚ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴾ (السجدة:9). وتعطيل هذه الطاقة الكبرى، يصرف طاقات الإنسان الأخرى إلى الانكفاء على ذات الإنسان وخدمة المصالح الدنيوية القريبة العاجلة التي تدركها حواسه في مداها المحدود، وهكذا ينحسر نطاقها وتقل فعاليتها وكفاءتها وإن لم تنعدم تمامًا، لكن يظهر خلال عملها من العيوب ما يتزايد مع الأيام -شأن أي آلة تُعطَّل إحدى مقوماتها الأساسية - فلا تسير كما ينبغي:﴿ مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا ﴿١٨﴾ وَمَنْ أَرَادَ ٱلْـَٔاخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ﴿١٩﴾ كُلًّا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ ۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴾ (الإسراء:18-20).

فطاقات الإنسان الجسدية والنفسية والعقلية تعمل في غيبة هداية الروح، ولكنها تعمل قاصرة متخبطة، يتخللها نقص الكفاءة وعيب تعطيل مكوّن إنساني أساسي، ويتفاقم ذلك مع الزمن، وتبدو آثاره جلية على الاستقرار والتوازن في نفس الفرد وبين أفراد الأسرة وأفراد المجتمع، فيقترن النجاح المادي بالضنك والعُسر في جنبات النفس والمجتمع. ويعيش الإنسان سجين أهوائه، فينقطع ما بينه وبين الناس، وينطلق عارمًا في خدمة ذاته وأنانيته، فيستوحش الناس منه ويستوحش هو من الناس، ويتذبذب مع

غرور النجاح ويأس الفشل، لأنه يعيش ومركز اهتمامه وتفكيره وعمله (ذاته)، ومداه الزمني (اللحظة) التي هو فيها أو ما يتجاوزها بقليل، فيكون دائمًا «**فَقْرَهُ بَيْنَ عَيْنَيْهِ**» -كما أوضح حديث الرسول ﷺ الذي رواه الترمذي وغيره[1]- في حين تضيء هداية الروح حين تتفاعل مع طاقات الإنسان النفسية والعقلية والجسدية مسالك الحياة، فلا يطغيه البطر، ولا يتهاوى إذا أصابه فشل:﴿ لِّكَيْلَا تَأْسَوْا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا۟ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ ﴾ (الحديد:23)، ﴿ لِّكَيْلَا تَحْزَنُوا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَآ أَصَٰبَكُمْ ﴾(آل عمران:153)، ﴿ تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ۚ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ (القصص:83).

وقد أبرز حديث رسول الله نعمة الاستقرار والتوازن في نفس المؤمن، مما يضاعف فعالياته وإنتاجيته ويعمق سكينته وسعادته: «**عَجَبًا لِأَمْرِ الْمُؤْمِنِ إِنَّ أَمْرَهُ كُلَّهُ خَيْرٌ، وَلَيْسَ ذَاكَ لِأَحَدٍ إِلَّا لِلْمُؤْمِنِ، إِنْ أَصَابَتْهُ سَرَّاءُ شَكَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَّاءُ صَبَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ**»[2]. وليس الصبر هنا صبرًا سلبيًا انهزاميًا، إنما هو صبر مقرون بالمصابرة والعمل الدؤوب لتعويض ما فات، إذ خسارة معركة لا تعني خسارة الصراع كله﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱصْبِرُوا۟ وَصَابِرُوا۟ وَرَابِطُوا۟ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾(آل عمران:200). وهكذا يعني الصبر استمرارًا في السعي مع محاولة تجنب ما أوقع في العثار من قبل، فتتسع الآفاق أمام الفرد وأمام الجماعة إذ تتواصى بالحق والصبر: ﴿ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ ﴾ (العصر:3).

---

(1) أخرج الترمذي عن أنس بن مالك رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «**من كانت الآخرة همه جعل الله غناه في قلبه، وجمع له شمله، وأتته الدنيا وهي راغمة.. ومن كانت الدنيا همه جعل الله فقره بين عينيه، وفرق عليه شلمه، ولم يأته من الدنيا غلا ما قدر له**».

(2) أخرجه مسلم.

وتتجلى آثار الطاقة الروحية مع سائر طاقات الإنسان النفسية والعقلية والجسدية في تعامله مع (الآخرين)، إذ يخرج من انكفائه على ذاته وأنانيته التي تصور (الغير) عدوًا لدودًا ما (غيرًا)... وأول ما يظهر ذلك في مجتمعه الصغير: في الأسرة نواة المجتمع الكبير. فيوقن الزوجان أنهما خلقا معًا﴿ مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ ﴾ (النساء:1)، (الأنعام:98، الأعراف:189، الزمر:6)، وأن في الزواج والأسرة سكينة ومودة ورحمة هي من آيات الله (الأعراف:189، الروم:21)، وأن هذه تتجاوز وتفوق أي مدى يبلغه تفصيل الحقوق والواجبات بين الزوجين، وتدار أمور الأسرة بينهما﴿ عَن تَرَاضٍ مِّنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ ﴾(البقرة:233). وينشأ الأولاد على التربية الاستقلالية الصحيحة التي لا تقطع ما أمر الله به أن يوصل وتحفظ حق الوالدين وحقوق الناس.. فلا تعني الثقة بالنفس أو الرضا عنها Self-Esteem الأنانية والغرور والعجرفة.. كما لا تعني الرقّه والدماثة السكوت عن الحق أو الفزع من عواقبه: ﴿ يَٰبُنَيَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأۡمُرۡ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَٱنۡهَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ ﴿١٧﴾ وَلَا تُصَعِّرۡ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمۡشِ فِي ٱلۡأَرۡضِ مَرَحًاۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخۡتَالٖ فَخُورٖ ﴿١٨﴾ وَٱقۡصِدۡ فِي مَشۡيِكَ وَٱغۡضُضۡ مِن صَوۡتِكَۚ إِنَّ أَنكَرَ ٱلۡأَصۡوَٰتِ لَصَوۡتُ ٱلۡحَمِيرِ ﴾ (لقمان:17-19).

إن الحضارة المعاصرة قد بدا خللها الروحي أول ما بدا في كيان الأسرة نواة المجتمع، فاضطربت علاقات الزوجين، وعلاقات الآباء والأبناء. وأدت الأنانية وغياب هداية الروح التي تخرج الإنسان من سجن الذات وتوسع آفاقه وتضاعف فعالياته، إلى الانطلاق وراء شهوات الجسد الموقوتة، وإهمال كيان الأسرة الدائم، وما تحققه من سكينة نفسية واجتماعية دائمة متجددة نتيجة «المودة والرحمة» و«التشاور والتراضي»، ونتيجة التراحم المتبادل المتواصل بين الوالدين والأبناء. ولم تعد العفة الجنسية والأمانة الزوجية قاعدة لحياة الأسرة والمجتمع.

وتجلى هذا الخلل في سلوك الصغار والكبار من حيث العمر أو الوضع الاجتماعي. وباضطراب كيان الأسرة، مع اضطراب نفوس الأفراد، فزع كثير من الشباب إلى تكوين عصابات Gangs ، يحققون فيها ما تخلَّف من تضامن الأسرة وتكافلها.. ويعوضون بترويج المخدرات واستعمالها وبالعنف والجريمة ما فقدوه من تراحم الأسرة وتساندها.. ويثأرون لما فاتهم من المودة والرحمة بإشاعة الرعب والفزع في المجتمع بأسره!

وإذا كان تفاعل الطاقة الروحية مع سائر طاقات الإنسان سيخرج الفرد من قوقعة أنانيته إلى التعامل بالخير والمعروف مع الأسرة والأهل، فإن من شأنه أن يمد نطاقه إلى التعامل مع (الغير)، أيًا كان، وإلا كانت أنانيته من نوع آخر! فالناس جميعًا أكْفَاء وأنداد، كلهم فيهم -بحكم إنسانيتهم - ما نفخ الله في الإنسان من روحه: ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ شَهِدْنَآ ۛ أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ ﴾ (الأعراف:172).

«**فالبوصلة الروحية**» **جوهر إنساني شامل عام**، سواء جرى استعماله أو إهماله من صاحبه.. واحترام إنسانية كل إنسان بمجموع طاقاته واجب كل إنسان.. وهكذا تتعمق مشاعر المساواة والتعاون والتضامن بالنسبة للبشر أجمعين، ولا تكون فلسفة نظرية أو حكمًا قانونيًا أو فضيلة قومية!

إن الأخلاق «العلمانية»، التي تستند إلى الفلسفة العقلية، أو الإلزام القانوني، أو التقاليد القومية، مع كل منطقها وأساليبها، لم تستطع النفاذ إلى عمق الروح، أو اتساع الجماهير، أو الاستمرارية خلال مختلف الظروف بالنسبة للفرد. فكثيرًا ما تدفع أزمات النفس وأنانيتها أو جور الآخرين، إلى استباحة الرذائل وحقوق (الغير) وتكديس الأموال والتنكر لحقوق المحرومين وحقوق المجتمع ككل، لا سيما إذا كان النفع الشخصي يبهر ويسحر ويشل كل منطق للفلسفة أو القانون أو التقاليد!

إن عمق الروح الإنسانية له غوره، الذي لا يبلغه غيره!

إن «العلمانية» لم تقتصر على أن يتولى مناصب الدولة الأكفاء لا المنتمي لعقيدة ما كما نشأت في أصلها، ولم تنكر حق الروح في إدارة الدولة فحسب، ولكنها أصبحت تعني عزل الروح عن طاقات الإنسان النفسية والعقلية والبدنية في أي مجال عملي أو اجتماعي، وهذه مصيبتها ومصيبتنا بها في مجتمعاتنا المعاصرة!

والحق أن تقرير الروح في الإنسان لا يعني بحال عزله عن علاقته بغيره، بل يوسع نطاقها ويعمق جذورها.. ولا يعني بحال انصرافه عن العمل في الدنيا، بل يؤكد استمراريته في مختلف حالات المد والجزر، والنجاح والفشل. ولم يقل أحد إن التميز الروحي هو أساس تولي مناصب الحكم، فالكفاءة قرينة الأمانة في تولي أي عمل والقيام بأي مسؤولية: ﴿ إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْأَمِينُ ﴾ (القصص:26)، ﴿ قَالَ ٱجْعَلْنِى عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ ۖ إِنِّى حَفِيظٌ عَلِيمٌ ۝ ﴾(يوسف:55). لكن هذا لا يعني بحال أن يخلو شاغل المنصب ذو الكفاءة العقلية من الجوهر الروحي للإنسان، كإنسان، وهذا ما ذهبت إليه العلمانية في تطرفها، وأخذت به الحضارة المعاصرة، فبرز الخلل في نفس الفرد وكيان الأسرة وعلاقات المجتمع والإنسانية كافة، وتضخمت الفردية حتى سحقت توازن النفس والأسرة والمجتمع جميعًا: ﴿ فَذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمُ ٱلْحَقُّ ۖ فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَـٰلُ ۖ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ﴾ (يونس:32).

لقد أدركت الحضارة المعاصرة مدى الخلل الذي أصابها من تجاهل «نفس الإنسان»، فاتجهت إلى دراسة «النفس» ولكن على أساس معملي يعتمد الملاحظة والتجربة وحدهما، فكشفت عن جوانب هامة، ولكن قصرت وسائلها ومناهجها عن إدراك البعد الروحي للإنسان في أعماقه الغائرة، وعنيت فقط بـ«تسلسل الأحداث لاستعمال المعرفة المكتسبة بهذه الطريقة من أجل بلوغ غايات سريعة بوسائل محددة»،

واتجهت إلى «الخاص والزمني لا إلى العام والأبدي... وأصبحت هذه هي المعرفة الحقيقية الوحيدة»، وإلى «المعضلات الحسية المباشرة التي تستلزم حلاً سريعًا»، على حد التشخيص الدقيق لعميد كلية العلوم الإنسانية بجامعة «استانفورد» في ندوة اليونسكو في نيودلهي... ومن ثم فقدت هذه الدراسات والبحوث القدرة والفاعلية في حل المعضلات العاجلة والآجلة على حدٍّ سواء! ذلك أن الخاص والزمني لا يمكن مواجهتهما مواجهة صحيحة فاعلة إلا على أساس العام والأبدي!

بل إن ما توصل إليه بعض علماء النفس من نتائج جديرة بالاهتمام والتأمل، قد استغلت لتبرير الانحراف بدلاً من تعليله. ومن ذلك ما توصل إليه ألفرد آدلر Adler العالم والطبيب النفسي النمسوي (ت1937م) من أهمية «السيطرة» كدافع نفسي، وما قد تؤدي إليه من مركب نقص عند من يحرمها Inferiority Complex ، وما توصل إليه سيجموند فرويد Freud طبيب الأعصاب النمساوي مؤسس مدرسة التحليل النفسي Psychoanalysis (ت1939م) من أهمية «الجنس» كدافع، وما قد يؤدي إليه الكبت والقمع Suppression بدلاً من التوجه الصحيح والإعلاء.

استخدمت مثل هذه النظريات –وأحيانًا الفلسفات – لتبرير الجنوح والتسلط والعدوان أو التمرد، ولتبرير التسيب والانحلال وطرح قيم العفة والشرف وحرمة الأسرة.. وصارت المرأة مجرد «سلعة» جنسية تستخدم لترويج السلع الأخرى، وامتدت غوائل ذلك إلى الأطفال، وأصبحت العلاقات الجنسية لا تعني الزواج.. وتزايدت حالات الحمل والولادة عند المراهقات.. ومع كل هذه الاستباحة للفرار من الكبت، تزايدت جرائم الاغتصاب، حتى في قرارة البيوت أو قارعة الطريق في رابعة النهار. كذلك دوّت طلقات الرصاص، وسالت دماء القتلى حتى في المدارس، وبين الأطفال! وارتفع نذير البابا بول بأن عزل (الجنس) عن دوره في جمع الذكر والأنثى في وحدة (الأسرة)، وتحقيق استمرار النوع الإنساني، وتدعيم علاقة الزوجين بعد أن

يصيرا أبوين، (من شأنه أن يقوض استقرار المجتمع من الأساس)!

ولم تسعف المدرسة الأسرة الواهنة المضطربة في حمل عبء تربية الأجيال، وانحسر استعمال مصطلح التربية «Pedagogy»، وجرى الاصطلاح على استبدال التعليم به «Education» وليت هذا «التعليم» قد تحقق.. فالتصعيد (الآلي» للطالب أوالطالبة إلى الفِرق الأعلى ينتهي بتخريج من لم يتعلم، فضلاً عن افتقاد «التربية»!

كتب د. ويليم ك. كيلباتريك Williem K.Kilpatriek أستاذ التربية –أو التعليم – بكلية بوسطن وصاحب كتاب: (لماذا لا يميز جوني بين الصحيح والفاسد «Why Jonny can't tell Right from Wrong?»، كتب مقالاً في جريدة لوس أنجلس تايمز بتاريخ 20 يوليو (تموز) 1993م تحت عنوان: «تخريج أميين أخلاقيين Turning out Moral Illiterates»، جاء فيه: «كثير من شباب اليوم يصعب عليهم رؤية أي بعد أخلاقي لتصرفاتهم... ولذلك عدة أسباب، من أبرزها النظام الفاشل للتعليم الذي يتحرَّج من تعليم الأطفال القيم الأخلاقية المتوارثة التي كفلت ترابط الأمريكيين كمجتمع وثقافة. فقد أدخلت إلى المدارس منذ 25 عامًا محاولة تحت عنوان: «اتخاذ القرار Decision Making»، وهي تدعو الأطفال إلى أن يقرروا لأنفسهم بأنفسهم ما هو الصحيح أو الفاسد، وحل هذا محل «تعليم القيم السلوكية Character Education» وقد كان المدرسون في الأربعينيات مثلاً يقلقون حين يرون أطفالاً يمضغون العلك (اللبان)، لكن ما يقلقهم اليوم هو السرقة والاغتصاب! إن منهج «اتخاذ القرار» اليوم يضع أمام الطلاب مسائل شائكة تترك لديهم الانطباع بأن «الأخلاقية» مشكلة، وأن مسائل الصواب والخطأ من الوجهة الأخلاقية هي دائمًا موضع جدل واختلاف!... وتفترض الطريقة المتبعة في منهج «اتخاذ القرار»، أن **الطلاب سيصلون إلى النتائج الأخلاقية الحميدة إذا ما أتيحت**

لهم الفرصة لذلك، ولكن النتيجة الواقعية هي **الارتباك الأخلاقي**. وقد أظهرت دراسة على مستوى الدولة كلها تناولت ألفًا وسبعمائة من طلبة الصفوف بين السابع والتاسع، أن غالبية من الذكور تعتبر الاغتصاب مقبولاً في ظروف معينة.. ومن المذهل أن طالبات كثيرات أقررن ذلك!

وهذا الضرب من الأمية الأخلاقية تشجعه برامج لتعليم «لقيم» Values Education Programs **لا تزيد إلا قليلاً عن كونها مقررات لتعليم «الرضا عن النفس** .**Self-Esteem**»... وهي مبنية على افتراض غير مسلَّم **أن الطفل الذي يشعر بالرضا عن نفسه لن يرغب في عمل شيء خاطئ!** ويمكن أن يقال: إنه من المعقول كذلك افتراض النقيض، فيقال: إن الطفل الذي لا يضع نظرته إلى نفسه موضع النقد قط سينتهي إلى أنه لن يعمل بحال شيئًا سيئًا أبدًا! ومثل هذا القبول الساذج للنفس الذي يتولد في أغلبه عن عقلية تحثه على «ألا يحدد وجهة معينة أو يصدر حكمًا معينًا وإنما المهم أن يشعر دائمًا بأنه مستريح لما يختاره من سلوك، قد ساد التعليم العام خلال الأعوام الثلاثين الماضية!... (وهذه) الفلسفة منذ الستينيات قد أمدت بالوقود -بالدرجة الأولى- ذلك الانفجار في تعاطي المخدرات وممارسة الجنس بين المراهقين»!

علينا نحن المسلمين، مع كل مؤمن بالروح كجوهر للإنسان، أن نبصِّر الحضارة المعاصرة بالخلل في أسس بنيانها الذي أدى إلى انحراف هذا البنيان أكثر من انحراف برج بيزا في إيطاليا.. وأن هذا الخلل يتعذر تداركه مع مضي الزمن، وينبغي الإقدام على ذلك قبل أن ينهار البناء كله على البشرية جمعاء!

لقد وجه المفكر الهندي المبرز «رادا كريشنا» الذي كان نائب رئيس الهند عند انعقاد ندوة اليونسكو في نيودلهي 1951م، هذه الكلمات المنيرة في خطابه

الافتتاحي:

«إن التجربة الدينية **وحي رباني، ووعي داخلي، وتحرر مطلق**. وهذا الوعي هو ما يسمونه المعرفة، ونقيضه الجهل، أي الانحصار ضمن الحدود الضيقة للحياة العقلية الحسية... **وليست التجربة الدينية قضية إيمان بسلسلة من المعطيات، وإنما هي انتفاضة الكيان الإنساني بأكمله إزاء المشكلات التي تطرحها العلاقات البشرية في الواقع اليومي**. إنها طريقة في العيش والحب والحكمة... **إن وجود المبدأ الإلهي في حالة كامنة عند جميع البشر يبقي الخلاص ممكنًا**... إن الإنسان **ينطوي على عنصر روحي يجعل منه كائنًا متميزًا**... الإنسان أكثر من كائن عقلي أوتاريخي. إنه فيض من نور الإله، **وتشع مقومات الإنسان ومميزاته من روحه وكأنها المركز**...».

ترى هل تعي الحضارة المعاصرة هذه الحقيقة، التي أكدتها قرون متطاولة من رسالات الأنبياء عليهم السلام، وأفكار الفلاسفة، وبحوث العلماء وكشوفهم، فتتدارك في غدها الأخطاء المروعة في أمسها، وتعود إلى «البوصلة الروحية» للإنسان، لتعرف وجهتها، وتميز الخطأ من الصواب؟!

هذا ما يلح عليه المسلمون، ويتطلعون إلى أن يقدموا فيه المثل والقدوة إلى عالم الغد، حتى يتحقق التوازن واستقامة المسير واطراد النمو للفرد والجماعة، ويعود للأسرة دورها الحيوي الجوهري بالنسبة للفرد والجماعة على السواء: ﴿قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ ۝ يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ (المائدة:15-16).